القسم الأول

أبحاث باللغة العربية

صورة مصر في الكتب الأجنبية المترجمة

أ. د. غـــراء مهنـــا

أستاذ الأدب الفرنسي بقسم اللغة الفرنسية وآدابها،
كلية الآداب، جامعة القاهرة

لا يختلف اثنان على فكرة أن الفرنسيين يحبون مصر بل تتعدى مشاعرهم مجرد الحب إلى العشق أو الشغف أو الولع بمصر الذي يطلق عليه كلمة Egyptomanie. ولكن هل اختلفت هذه النظرة إلى مصر والمصريين على مر العصور هذا ما سأحاول الرد عليه باستعراض بعض كتابات الأدباء الفرنسيين على مر الأزمنة.

وقبل أن أبدأ ذلك أريد أن أؤكد أن هذا الحب موجود دائمًا وسأتناول مثالين للدلالة على هذا الشغف بمصر:

المثال الأول: الندوة التي أقيمت في مايو ٢٠٠١ بعنوان: الفرنسيون يعشقون القاهرة Les Français aiment Le Caire في باريس والقاهرة في آن واحد ولمدة عدة أيام تحت رعاية محافظ القاهرة في ذلك الوقت وسفيري مصر وفرنسا في القاهرة وباريس وشارك فيها من الجانب المصري وزارة الثقافة والسياحة والتعمير والإسكان والنقل والقنوات التليفزيونية الثقافية وNile TV.

ومن الجانب الفرنسي وزارات الخارجية والثقافة والتعليم ومسئولو بلدية مدينة مارسيليا. وكذلك الكثير من المؤسسات والهيئات ورجال الفكر والأدب والثقافة والإعلام في البلدين. واشتملت وقائع هذه الاحتفالية على ندوات وأبحاث علمية ومؤلفات وأفلام سينمائية وأغانٍ وأعمال موسيقية ومعارض وحلقات نقاش تدور كلها حول مدينة القاهرة ونذكر منها **على سبيل المثال**:

القاهرة في عيون الأدباء

القاهرة في عيون الموسيقيين

القاهرة في عيون السينمائيين

القاهرة في عيون مصمم أزياء فرنسي: كرستيان ديور.

وكانت هذه الاحتفالية تقام في أماكن متفرقة من القاهرة: قصر المنسترلى وسوق الفسطاط وقهوة ريش وبعض مطاعم وسط البلد ومنزل زينب خاتون والمكتبات العامة

صورة مصر في الكتب الأجنبية المترجمة، المجلد الثاني، العدد ١، يناير ٢٠١٣، ص٧ – ١٢.

والمتاحف وغيرها مع بث مباشر من القاهرة وباريس في آن واحد.

وصدرت[1] بهذه المناسبة مجموعة من الكتب نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- كتاب كوكتو المصري لأحمد يوسف (دار نشر Rocher ٢٠٠١) وسنتحدث عنه فيما بعد.
- صدور كتاب القاهرة (دار نشر Citadelles & Mazenod) وكتاب آخر صدر في مصر بعنوان القاهرة أيضًا أصدرته محافظة القاهرة.
- وصدور كتاب فن العمارة الأوربية: القاهرة ١٨٥٠-١٩٥٠ عن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ومركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية والاجتماعية Cedej.
- ومن الندوات: **ندوة القاهرة في عيون** Pascal Coste وهو مهندس معماري من مارسيليا أنجز أعمالًا مهمة في الوجه البحري وعاد من سنواته التي قضاها (١٨١٧ – ١٨٢٧) في مصر بتراث تشكيلي يتجاوز ألف وثيقة بين رسوم وأشكال وتصميمات ومائيات ورفع لمساقط. وهذا الإسهام للتعريف بمصر موجود في مكتبة مارسيليا وهو شديد التأثير بتنوعه من مشاهد الحياة اليومية للآثار والمعمار وتاريخ الفن، وهو من أوائل أبناء الغرب الذين كشفوا عن الفن الإسلامي عن طريق الوصف التصويري للمساجد وكشف جمال العمارة الإسلامية والفنون الزخرفية.
- ندوة **رؤى القاهرة: من كتاب وصف مصر** (Lenhert & Landrock) وتناولت مؤلفات **وصف مصر** (١٧٩٨) **وفن العمارة العربية** لباسكال كوست (١٨٣٧) **وتاريخ الفن المصري** لـ Prisse d'Avennes (١٨٧٨) وروايات الرحالة والشعراء وهي مجموعة من الرؤى ووجهات النظر حول القاهرة في القرن التاسع عشر.

وأعتقد أن مثل هذه الاحتفالية تشير بقوة إلى عنوانها: «**الفرنسيون يعشقون القاهرة**»

المثال الثاني: للدلالة على هذا الولع بمصر أتناوله في إيجاز وهو كتاب الكاتب الصحفي المصري الأصل الذي يعيش في فرنسا Robert Solé وهو يكتب بالفرنسية مع تأكيده الدائم أنه مصري وهو كتاب:

Egypte Passion Française

ترجمه لطيف فرج بعنوان **مصر ولع فرنسي** (مكتبة الأسرة عام ١٩٩٩).

ويرجع Solé هذا الشغف بمصر إلى القرن السادس عشر ولقد بدأ بحكايات خادعة يحكى فيها الفرنسيون ما يظنون أنهم

شاهدوه أو بالأحرى ما يتمنون مشاهدته، ثم تحولت هذه المشاهدات المتخيلة إلى واقع شاهده الرحالة المستكشفون.

ويذكر Solé عددًا من الأدباء وأهل الفن وعلماء المصريات وغيرهم الذين عشقوا مصر وكذلك رؤساء فرنسا أمثال **ميتران** الذي كان يقضي أجازة عيد الميلاد فى أسوان، وهى آخر مدينة زارها خارج فرنسا قبل وفاته وقوله إنه يريد أن يموت في أحد أجمل الأماكن في العالم أسوان أو فينسيا.

ويشير Solé إلى أن ملكة فرنسا **مارى أنطوانيت** كانت تظهر شغفًا بمصر فأمرت بإحضار عدد من القطع الفنية إلى القصور الملكية. وكانت تهوى تماثيل **أبي الهول** بشكل خاص حتى أنه وجد عددًا منها في غرفة نومها في قصر ڤرساى وفى صالونها فى Fontainebleu أو في مكتبها الخاص بـ Saint – Cloud.

وأنتقل الآن إلى ذكر كتابات بعض الأدباء الفرنسيين عن مصر وعشقهم لها:

١- الشاعر والكاتب الفرنسي Théophile Gautier (١٨١١-١٨٧٢) الذى كتب خطابًا إلى صديقه الذي يزور مصر Maxime du Camp يقول فيه:

"إنني غيور من سعادتك وأحسد خادمك على مصيره. يجب عليّ سرقة بنك فرنسا أو قتل بعض البورجوازيين أو طعن رجل رأسمالي لكي أسافر وألحق بك".

وتمكن Gautier من زيارة مصر عام ١٨٦٩ بعد أن خصها بصفحات كثيرة فى أعماله فيكتب:

"أنا تركي ولكنى لست من إسطنبول ولكن من مصر، يبدو لي أنني عشقت الشرق وحين أتنكر فى أحد الكرنفالات بارتداء القفطان والطربوش فإنني أشعر أنني أستعيد ملابسي الحقيقية. لقد كنت دائمًا مندهشا لأنني لا أفهم اللغة العربية بيسر. لابد أنني نسيتها"

مشيرًا بذلك إلى أنه لا ينتسب إلى البلد الذي شهد مولده فرنسا وإنما إلى مصر.

وكتب Gautier رواية رومانسية عام ١٨٣٨ بعنوان **"ليلة كيلوبا طرا"**. وفي عام ١٨٤٠ كتب قصة **"قدم مومياء" وهى** مستوحاة من عثور عالم المصريات فيفيان دينول في وادي الملوك على قدم مومياء أحضرها معه وهى قدم سيدة شابة من الأميرات. وفى عام ١٨٥٨ **كتب رواية المومياء**. ونذكر أن هذه السنوات شاهدت اهتمامًا واسعًا بعلم المصريات.

٢- كتاب Voyage en Orient **رحلة إلى الشرق** Gérard de Nerval (١٨٥١) الذي لا يمكن تحديد النوع الأدبي الذي ينتمي إليه فهو ليس أدب رحلات ولا

دراسـة ولا روايـة حيـث تـشغل **نـساء القاهرة** الجزء الأكبر من الكتاب. ونرفال عاشق للشرق كان في شبابه ينسخ **الخـط العربي** دون فهم لما يكتب وكانت رحلتـه هذه هي هروب من اتهام له بالجنون يريد أن ينفيه ويثبت أن عقله سليم.

ورصد Nerval الحيـاة اليوميـة في مدينـة القاهرة ووصف موكب المحمل الذي يحمـل كـسوة الكعبـة الـشريفة، وقـصر محمـد عـلى ومشهد بيع التجار للجواري الزنجيات وبـدا مصدومًا بهذا المشهد.

وكما حظيت مدينة القاهرة بالاهتمام فـإن مدينة الإسكندرية كتب عنها الكثيرون نـذكر مـنهم عـلى سـبيل المثـال الكاتـب الفرنـسي Daniel Rondeau الـذي نـشر كتابـه Alexandrie عام ١٩٩٧ بـدار نـشر Nil في بـاريس (نـشير إلى اسـم الـدار Nil) حيـث يخلط حاضر المدينة بماضيها وبناء الإسـكندر للمدينة وفنارها. ثم يتعرض للكتاب الـذين كتبوا عن مدينة الإسكندرية ويذكر منهم:

- الكاتب والـشاعر البريطـاني Laurence Durell الذي عاش في مـصر مـن ١٩٤١ إلى ١٩٤٥ وكتب رباعية عن الإسـكندرية باللغة الإنجليزية.
- الشاعر اليوناني Cavafy.
- كـما يـذكر كتابـات إدوارد خـراط عـن الإسـكندرية ويـصف Rondeau الإسكندرية بأنها عاصمة الفكر والمعرفة التي تربط العالمين الشرقي والغربي.

٣- ونذكر أيضًا الكتاب الذى نشر أحاديـث ثلاثة من علماء المصريات

Jean Pierrre Corteggiani و Jean Yves Empereur و Solé Robert مـع Florence Quentin Boyard والـذي نـشر عـام ٢٠٠٥ بعنـوان Fous d'Egypte أي **مجانين بمصر** حيث يتحدثون عن عـشقهم لهـذا البلد الذي عاشوا فيه وعن أسباب اهتمامهم به. وكـما كتـب الفرنـسيون عـن عـشقهم وحـبهم وولعهم بمصر الحضارة والتاريخ والفـن كتبـوا عن المجتمع المـصري والحيـاة اليوميـة في مـصر راصدين العيوب وساخرين من بعض الأشـياء التي تحدث يوميًا في شـوارع القـاهرة. وسـأذكر كتابين أثارا ضجة عند ظهورهما:

الكتاب الأول لـ Jean Cocteau الـذي زار مـصر عـام ١٩٤٩ وهـى تحـت الحكـم الملكي، وحاول أن يكتشف سحر الشرق من خلال الحضارة المصرية، ولكنـه رصـد أيـضًا الوضع الاجتماعي للمصريين فى هذه الفـترة. وقابل طه حسين وقوت القلوب الدمرداشية. وكتب Cocteau عن رحلتـه هـذه إلى مـصر كتابًا بعنوان **معلش** Maalesh تحدث فيه عن

نزوات الأميرة شويكار وزواجها من الأمير أحمد فؤاد الذي أصبح فؤاد الأول ملك مصر وهو زواج غير ناجح وإهمالها لابنها الأمير وحيد الدين الذي كان سببًا في فساده.

وأفشى الكثير من أسرار البلاط الملكي الذي كان على علاقة به مما أدى إلى رفض المستشار الثقافي للملك فاروق توزيع هذا الكتاب «**معلش**» في مصر.

ولقد استقبل أهل الفكر والثقافة المصريون هذا الكتاب بضيق وهاجموه وأشار عالم المصريات Etiemble إلى معلومات Cocteau الخاطئة فى علم المصريات والتاريخ. وانتقد علماء المصريات حديثه عن فقر الفلاح المصري والتعصب الموجود بمصر. ولقد تحدث أنيس منصور عن Cocteau وأفرد له فصلًا فى أحد كتبه. ثم صدر مؤخرًا كتاب أحمد يوسف المصري الذي يعيش في فرنسا Cocteau L'Egyptien أو **كوكتو المصري** الذي يشيد فيه بهذا الكاتب الفرنسي ويتحدث عن رحلته إلى مصر.

٤- الكتاب الثاني والأخير هو Poils de Cairote أى شعر (جمع شعرة) القاهريين الذى نشر في باريس عام ٢٠٠٤ (دار نشر Seuil) لـ Paul Fournel الذي قضى في مصر ثلاثة أعوام من سبتمبر ٢٠٠٠ حتى يونيه ٢٠٠٣ أثناء عمله ملحقًا ثقافيًا في المركز الفرنسي للثقافة والتعاون في وسط القاهرة.

كان Fournel يكتب خمس مرات فى الأسبوع كل يوم ولمدة خمسمائة يوم صفحة يوميًا يرسلها بالبريد الإلكتروني بانتظام لثمانية وتسعين شخصا من أصدقائه يعبر فيها عن مشاعره وأحاسيسه لما يرى من مشاهد يومية فى هذه المدينة فيتحدث عن الجو الحار الرطب حتى في الشتاء ونفير السيارات ويستشهد بـ Cocteau في كتابه **معلش** الذي يقول إن سائقي التاكسي في القاهرة يطلقون نفير سيارتهم في الإشارة لأنهم يعتقدون أنهم بذلك يمكنهم تغييرها إلى اللون الأخضر (ص٩٢، ص٩٣) ويستطرد Fournel قائلًا: "أردت التأكد من ذلك فسألت سائق التاكسي الذي أستقله" لماذا يطلق نفير سيارته". فأجابني": لأطلقه" ويضيف:" نحن إذن على الطريق الصحيح".

ويتحدث Fournel في كتابه عن تهديد نجيب محفوظ بالقتل ومنع كتبه، ويكتب عن جهل سائق التاكسي بالشوارع وعناده ويقول: "المصريون يدلونك دائمًا على الطريق خاصة عندما لا يعرفونه. ويتحدث عن قطط الشوارع وتناقض المصريين، فالمرأة التى ترتدي الحجاب تطلب منه كأسًا من الخمر فى السر، ويكتب عن الفقر الذي يلائم الجميع فالأيدي العاملة

رخيصة كما أن الفقر يحافظ عـلى الجهـل ويؤكـد فكرة وجود عالم أفضل بعد الموت كما أنه يجعـل كل شيء منخفض الثمن. سلبيات وراء سلبيات يرصـدها Fournel في كتابـه بعـضها حقيقـي وبعضها مبالغ فيه.

هل اختلفت نظـرة الفرنـسيين لنـا؟ هـل نحن الذين تغيرنـا؟ في الواقـع أن الإعجـاب بمصر كان دائمًا موجودًا لحـضارتها، وآثارهـا وتاريخها العريق، وعند بدء النظر إلى المجتمع المصري وحياتنا اليومية وسلوكياتنا أي النظر إلى مـصر مـن زاويـة أخـرى اختلفـت نظـرة الفرنسيين إلينا. فمصر بلد مليء بالتناقـضات فتكتـب Edwige Lambert و Isabelle Vinatier عن القاهرة ما يلى:

"مدينة كلما ظننت أنـك أدركتهـا أفلتـت منك وكلما لاح لـك أنـك فهمـتها ضـللتك وكلما توهمت أنك تتعـرف عليهـا ظهـرت في مكان آخر بوجه آخر".

هوامـش:

١- مداخلة قدمتها فى نـدوة بمعـرض القـاهرة الدولى للكتاب فى يناير ٢٠١٢.

****